ملخص البحث

اعتنى الباحث في هذه الدراسة بجمع الأحاديث والآثار المتعلقة بوفاة النبي ﷺ فأوردها مراعياً التسلسل الزمني حسب الدليل، وأورد في دراسته الأحاديث المقبولة فقط من صحيحة وحسنة، ولم يستشهد في دراسته بالضعيف، بله الموضوع.

والدراسة مرتبة ترتيباً موضوعياً، من حيث جمع الأحاديث ذات الموضوع الواحد إلى بعضها، ثم الاستفادة منها ما أمكن في مواطن عدة.

وقد عمد الباحث إلى الأحاديث فقطع بعضها لأجل إيرادها في أكثر من موطن، وله في ذلك سلف يتبع.

والله الموفق الهادي.

المقدمة

" وأظلمت المدينة" عنوان دراسة تعرض الأحاديث والآثار الواردة عن النبي ﷺ وأصحابه، أوردها الباحث في أبواب وعناوين تابع فيها ما حدث للنبي ﷺ منذ بدأ ظهور المرض عليه حتى قبضه ربه سبحانه إليه.

وتربو أحاديث البحث على المائة، وفيها تكرار اقتضته طبيعة الدرس الموضوعي الذي يراد منه الإستفادة من موضوع الحديث في مواطن عدة، غير أن المكرر في البحث لا يشكل ظاهرة بينة.

وقد اعتمد الباحث على الحديث المقبول؛ الصحيح والحسن بشقيهما، ولم يذكر حديثاً واحداً ضعيفاً في الدراسة.

واعتمد الباحث أقوال أهل الفن في الحكم على الحديث.

واختيار الباحث لهذا العنوان" وأظلمت المدينة" مقتبس من حديث أنس بن مالك ﷺ الذي قال فيه عن المدينة أنها أظلم منها كل شيء.

وبلغت المباحث اثني عشر مطلباً وخاتمة هذا وصفها.

في المبحث الأول: الأمارات الدالة على اقتراب أجله ﷺ بين الباحث فيه الأحاديث والآثار الواردة التي تدل على دنو أجل النبي ﷺ وهي الأخبار التي فهم منها الصحابة اقتراب أجله ﷺ .

أما المبحث الثاني ففيه تلطف النبي ﷺ بأصحابه في إطلاعهم على خبر وفاته ﷺ.

وفي هذا المبحث إشارات نبويه فهم منها أصحابه أن أجل النبي ﷺ قد دنا وأنه حضر الأجل المحتوم، وما تلطف النبي ﷺ ذلك التلطف إلا لأن الأصحاب لم يكونوا يقوون على سماع خبر وفاته فجأة.

ورغم تلطفه ﷺ في نقل الخبر إليهم إلا أنهم كانوا يجهشون بالبكاء كلما سمعوا منه شيئاً من ذلك.

أما الفقرة الثالثة فقد تحدث فيها الباحث عن تطلع النبي ﷺ إلى بيت عائشة كي يمرض فيه عندها، فقد كانت نفس النبي ﷺ تتوق إلى بيت عائشة لأنسه ﷺ عندها أكثر من بقية أزواجه؛ ولذلك استأذن النبي ﷺ أزواجه في ذلك.

وفي الفقرة الرابعة يذكر الباحث آخر الخطب النبوية، ثم يعود الباحث إلى بيت عائشة فيدنو أكثر لينقل لنا آخر الأخبار النبوية آنذاك وكانت تلك العودة الفقرة الخامسة.

أما الفقرة السادسة فقد كانت لآخر الصلوات النبوية بالمسلمين، ووصيته ﷺ المسلمين بالصلاة خيراً.

ثم جاء احتضار النبي ﷺ في الفقرة السابعة، وفيها وصاياه ﷺ في احتضاره. ثم ترد الفقرة الثامنة التي وردت فيها اخبار الهمسات النبوية الأخيرة؛ مثل إختياره ﷺ الرفيق الأعلى.

واختار النبي ﷺ الدار الآخرة، كما أفادت أحاديث الفقرة التاسعة، وتوفي رسول الله ﷺ فجاءت الفقرة العاشرة لبيان أثر الوفاة على الأصحاب رضي الله عنهم، وكيف عقر عمر وبم خطب الناس حينها.

ثم تعرض الباحث في الفقرة التالية عن غسل النبي ﷺ وكفنه والصلاة عليه ودفنه ﷺ.

ثم كانت الفقرة الأخيرة، في بكاء الصحابة كلما تذكروا النبي ﷺ بعد ذلك.

ووفاة النبي ﷺ حدث عظيم، لا يمر على فؤاد إلا اهتز ووجل، وتذكر ربه عز وجل.

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباحث

أولاً: الأمارات الدالة على اقتراب أجله ﷺ

تتابعت الأمارات الدالة على وفاة النبي ﷺ، فنزلت الآيات القرآنية واضحة صريحة تتحدث عن وفاته ﷺ ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾(١) ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ (٢) ثم نزل قوله تعالى:﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾(٣) فأدرك منها بعض الصحابة أنها أجل النبي ﷺ .

١- فقد روى ابن عباس ﷺ قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ يدني عبد الله بن عباس ﷺ فقال له عبد الرحمن بن عوف ﷺ إن لنا أبناءً مثله فقال: إنه من حيث تعلم فسأل عمر ابن عباس عن هذه الآية :﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ (٤)فقال: أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم" (٥):

وقال ابن عباس :" نعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت" (٦)

٢- وروت أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ قبل أن يموت يكثر أن يقول:" سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك" قلت يا رسول الله إني أراك تكثر أن تقول: سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك؟فقال:" إني أمرت بأمر"فقرأ ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾(٧)

ومن الأمارات الدالة على اقتراب أجله ﷺ ما وقع من معارضة جبريل للنبي ﷺ القرآن مرتين في آخر رمضان شهده النبي ﷺ .

٣- تقول فاطمة رضى الله عنها أسَرَّ لي النبي ﷺ :"أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي".(٨)

ومن تلك الأمارات ما وقع من تتابع نزول القرآن على النبي ﷺ قبيل وفاته؛ فقد روى البخاري

٤-عن أنس بن مالك ﷺ أن الله تعالى تابع رسوله قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي ثم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد"(٩)

ولذلك بدأ ﷺ يهيىء أصحابه لهذه اللحظات الشديدة، لئلا تفجوهم الواقعة وتصيبهم الصدمة بمكروه.

٥- فقال لهم يوم حجة الوداع:"لعلي لا أراكم بعد عامي هذا"(١٠) فما عاش النبي ﷺ بعد حجة الوداع إلا إحدى وثمانين يوماً، قال ابن جريج: مكث النبي ﷺ بعد ما نزلت هذه الآية إحدى وثمانين ليلة قوله :﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾(١١).

ثانياً: تلطف النبي ﷺ في إخبار أصحابه بدنو أجله

ويدنو أجل النبي ﷺ ويقترب، فيأخذ بتذكير أصحابه بدنو أجله، وكانوا كلما سمعوا منه ﷺ شيئا من هذا الحديث أجهشوا بالبكاء.

٦- فعن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: أنبهني رسول الله ﷺ من الليل فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فخرجت معه، حتى أتينا البقيع، فرفع يديه فاستغفر لهم طويلاً ثم قال:" ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى، يا أبا مويهبة إني قد أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا، والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة" فقلت:يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فقال:" والله يا أبا مويهبة لقد

اخترت لقاء ربي والجنة" ثم انصرف رسول الله ﷺ ، فلما أصبح ابتدئ بوجعه الذي قبضه الله فيه.(١١)

وكان ﷺ يكثر في تلك الأثناء من تذكيرهم ووصيتهم بدينهم خيراً.

٧- روى معاذ بن جبل ﷺ قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ راكب، ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته فلما فرغ قال:" **يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا أو لعلك تمر بمسجدي هذا أو قبري**" فبكى معاذ جشعاً لفراق النبي ﷺ " (١٢)

وكأني به ﷺ يتلطف بإخبارهم ليودعهم بتلك الوصايا.

٨- فقد أخرج أبو داوود عن العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله : هذه موعظة مودع" (١٤)

إذن فقد أدركوا ﷺ عظمة الفادحة؛ إنه أجل النبي ﷺ علموا ذلك من طريقته ﷺ في الوصية إليهم والموعظة البليغة؛ ولذا كان النبي ﷺ يحث أصحابه على لقائه وكثرة التطلع إليه، كما روى أبو هريرة ﷺ قال:

٩- قال رسول الله ﷺ :" **والذي نفس محمد بيده ليأتين على أحدكم يوم ولا يراني، ثم لأن يراني أحب إليه من أهله وماله معهم**"(١٥)

قال النووي معقباً: " مقصود الحديث؛ حثهم على ملازمة مجلسة الكريم ﷺ "(١٦)

ويروي أبو سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ حديثاً آخر يبين فيه طريقة النبي ﷺ في تهيئة أصحابه لخبر وفاته ﷺ قال:

١٠- إن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال:" **عبد خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده** " فبكى أبو بكر وبكى فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا

به"([17]) قال ابن حجر:" وكأن أبا بكر فهم الرمز الذي أشار به النبي ﷺ من قرينة ذكره لذلك في مرض موته، فاستشعر منه أنه أراد نفسه فلذلك بكى"([18])

ثم يخرج النبي ﷺ لزيارة قبور الشهداء في أحد كأنه يودع الأحياء والأموات.

١١- عن عقبة بن عامر ﷺ قال: صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثماني سنين، كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال:" إني بين أيديكم فرط وأنا عليكم شهيد وإن موعدكم الحوض وإني لأنظر إليه من مقامي هذا وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها"

قال فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ . ([19])

ثم يدخل النبي ﷺ على أزواجه، وتظهر عليه أعراض الشكوى من مرضه الذي قبض فيه.

١٢- فعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت: أول ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، فاشتد مرضه حتى أغمي عليه"([20])

وقد أورد مسلم الحديث عن عائشة بنحوه ([21])

ويبين الحديث الآتي كيف اشتد المرض بالنبي تلك اللحظات، وكيف حاول نساؤه أن يمرضنه أو يخففن عنه حدة المرض .

١٣-تقول أسماء بنت عميس رضي الله عنها : فاشتد مرضه حتى أغمي عليه، قال: فتشاور نساؤه في لده ([22]) فلدوه فلما أفاق قال: "هذا فعل نساء جئن من هؤلاء" وأشار إلى أرض الحبشة، وكانت أسماء بنت عميس فيهن([23])

قالوا: كنا نتهم بك ذات الجنب يا رسول الله، قال:" إن ذلك لداء ما كان الله ليقذفني به، لا يبقين في البيت أحد إلا التد"([24])

وأورد البخاري الخبر برواية عائشة رضي الله عنها.

١٤- قالت رضي الله عنها: لددناه في مرضه فجعل يشير إلينا أن لا تلدوني، فقلنا: كراهية المريض للدواء. فلما أفاق قال:" ألم أنهكم أن لا تلدوني؟" قلنا: كراهية المريض للدواء. فقال:" لا يبقى في البيت أحد إلا لد وأنا أنظر، إلا العباس فإنه لم يشهدكم"(٢٥)

وتروي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها شكوى أخرى بدت على النبي ﷺ بعد عودته من جنازة بعض أصحابه.

١٥- تقول عائشة رضي الله عنها: رجع إليَّ النبي ﷺ ذات يوم من جنازة من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعاً، وأنا أقول:وارأساه قال:" بل أنا يا عائشة وارأساه قال:"وما ضرك لو مت قبلي، فغسلتك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك" فقلت:" إكأني بك والله لو فعلت ذلك، لرجعتَ إلى بيتي، فعرست فيه ببعض نسائك، قالت: فتبسم رسول الله ﷺ ثم بدئ في وجعه الذي مات فيه" (٢٦)

أما مرضه ﷺ وشدته فإليك حديث عائشة وأبي سعيد و ابن مسعود.

١٦- قالت عائشة:" ما رأيت أحداً أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ"(٢٧)

أما حديث أبي سعيد فقد بين بعض ما كان يعانيه النبي ﷺ تلك اللحظات.

١٧- قال أبو سعيد دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك، فوضعت يدي عليه، فوجدت حره بين يديَّ فوق اللحاف، فقلت يا رسول الله ما أشدها عليك! قال:" إنا كذلك؛ يضعَّف لنا البلاء ويضعَّف لنا الأجر"(٢٨)

١٨- قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أتيت رسول الله ﷺ في مرضه وهو يوعك وعكاً شديداً (٢٩)

ويزداد المرض على النبي ﷺ ويثقل، ويتطلع إلى يومه عند عائشة رضي الله عنها ويسأل عنه، كما تفيد الأحاديث في الفقرة الآتية:

ثالثاً: تمريض النبي ﷺ في بيوت أزواجه وتطلعه إلى بيت عائشة.

١٩- تقول عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه يقول: "**أين أنا غداً؟**" يريد يوم عائشة.

فأذن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها.(٣٠)

وفي رواية أبي داود بيان الطريقة التي استأذن النبي ﷺ فيها نساءه، قالت عائشة: أن رسول الله بعث إلى النساء- تعني في مرضه- فاجتمعن، فقال: "**إني لا أستطيع أن أدور بينكن، فإن رأيتن أن تأذن لي فأكون عند عائشة فعلتن**" فأذن له.(٣١)

قالت عائشة: مات في اليوم الذي كان يدور عليّ فيه في بيتي، فقبضه الله، وإن رأسه لبين نحري وسحري وخالط ريقه ريقي" ﷺ (٣٢)

وتصف عائشة في صورة مؤلمة كيف نقل النبي ﷺ من بيت ميمونة إلى بيتها؟ فتقول:

٢٠- لما ثقل النبي ﷺ واشتد به وجعه استأذن أزواجه في أن يمرض في بيتي، فأذنّ له، فخرج النبي ﷺ بين رجلين تخط رجلاه في الأرض بين عباس ورجل آخر"(٣٣)

وفي رواية مسلم: عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أخبرته -أي عائشة- قالت: أول ما اشتكى رسول الله في بيت ميمونة فاستأذن أزواجه أن يمرض في بيتها، وأذنّ له، فخرج ويد له على الفضل بن عباس، ويد له على رجل آخر، وهو يخط برجليه في الأرض، فقال عبيد الله: فحدثت به ابن عباس فقال: أتدري من الرجل الذي لم تسم عائشة؟ هو علي.(٣٤)

قال ابن حجر: قال ابن التين: أي يسأل عن قدر ما بقي إلى يومها، لأن المريض يجد عند بعض أهله من الأنس ما لا يجد عند بعض.(٣٥)

فبيّن الحديث ثقل النبي ﷺ يومئذ، حتى لا يقوى ﷺ على المشي بين بيوته وأزواجه.

وبدأ أزواجه في تمريضه، يمرضنه ويمرضه المسلمون، وهم مشفقون من قدوم تلك اللحظات الصعاب.

وكان من دأبه ﷺ قبل هذه المرة من مرضه أن يدعو لنفسه ويرقيها، كما بينت عائشة رضي الله عنها قالت:

٢١- إن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، قالت: فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عليه بيمينه رجاء بركتها"(٣)

فكأنه ﷺ لم يكن يقوى حتى على القراءة على نفسه ﷺ حينئذ.

وفي تمريضه ﷺ تروي عائشة رضي الله عنها الخبر الآتي كما يرويه عنها عروة.

٢٢- يقول عروة بن الزبير: وكانت عائشة رضي الله عنها تحدث أن النبي ﷺ قال بعدما دخل بيته واشتد وجعه:" هريقوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لعلي أعهد إلى الناس" قالت: فأجلسناه في مخضب لحفصة، زوج النبي ﷺ ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن، قالت: ثم خرج ﷺ إلى الناس فصلى بهم وخطبهم.(٤)

فماذا كانت تلك الكلمات في تلك الدقائق الغالية التي يرتقي فيها النبي ﷺ أعلى منبر على قلوب المؤمنين للمرة الأخيرة؟

رابعاً: آخر الخطب النبوية

يقول ابن عباس رضي الله عنهما:

٢٣- خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه بملحفة قد عصب بعصابة دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:" أما بعد فإن

الناس يكثرون ويقل الأنصار، حتى يكونوا في الناس بمنزلة الملح في الطعام، فمن ولي منكم شيئاً، يضر فيه قوماً وينفع فيه آخرين، فليقبل عن محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم فكان آخر مجلس جلس به النبي ﷺ (٣٨)

٢٤- ويروي أبو سعيد الخدري ﷺ حديثاً فيه جزء من خطبة النبي ﷺ يومذاك قال ﷺ : خطب رسول الله ﷺ الناس وقال:" إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله" قال فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيِّر، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا.

فقال رسول الله ﷺ :" إن أمَنّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت-أبا بكر، ولكن أخُوَّة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر"(٣٩)

قال ابن حجر في شرحه حديث عائشة في صب القرب السبعة:" إن النبي ﷺ خطب في مرضه- فذكر الحديث وقال فيه -:" لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر"(٤٠)

خامساً:آخر الأيام في بيت عائشة

ثم يعود النبي ﷺ إلى بيته، ويحدث عائشة رضي الله عنها أنه يجد سم تلك المرأة اليهودية يوم خيبر.

٢٥- تقول عائشة: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه:" يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهَري من ذلك السم"(٤١)

قال ابن حجر:" وعاش النبي ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذي قبض فيه. وجعل يقول:" ما أزال أجد ألم الأكلة التي أكلتها بخيبر عداداً حتى

كان هذا أوان انقطاع أبهري" عرق في الظهر وتوفي ﷺ شهيداً"([42]) كما أقسم على ذلك ابن مسعود ([43]).

٢٦- ثم تدخل أم مبشر فتقول: بأبي وأمي يا رسول الله، ما تتهم بنفسك؟ فإني لا أتهم إلا الطعام الذي أكل معك بخيبر، وكان ابنها مات قبل النبي ﷺ وقال:"وأنا لا أتهم غيره، هذا أوان انقطاع أبهري".([44])

ويشتد الوجع بالنبي ﷺ كما تروي عائشة وابن عباس رضي الله عنهما.

٢٧- قالا:" لما نُزِلَ برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه"([45])

ويتواتر قدوم الناس لعيادة النبي ﷺ فتدخل الحبيبة الغالية، فاطمة الزهراء، أكثر الخلق مصاباً بالنبي الحبيب ﷺ.

٢٨-تقول عائشة: دعا النبي ﷺ فاطمة عليها السلام في شكواه الذي قبض فيه، فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارّها بشيء فضحكت، فسألنا عن ذلك فقالت: سارني النبي ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه؛ فبكيت ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت"([46])

وتضحك فاطمة حين تدرك أنها أول أهله لحوقاً به، تضحك لتعلمنا أن الموت أولى من الحياة بلا صحبة الرسالة والرسول.

٢٩- ويصف أنس بن مالك أيام النبي ﷺ الأخيرة في خروجه للصلاة فيقول: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه متوكئاً على أسامة مرتدياً ثوب قطن فصلى بالناس.([47])

سادساً: آخر الصلوات والوصية بالصلاة

ويخرج النبي ﷺ ليصلي بالمسلمين صلاته الأخيرة، إنها آخر صلاة للنبي ﷺ بالمسلمين، وآخر آيات تتلى من في النبي ﷺ كما ترويها أم الفضل بنت الحارث.

٣٠- قالت رضي الله عنها سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً، ثم ما صلى لنا بعدها حتى قبضه الله"([٤٨])

كانت تلك صلاته الأخيرة بالمسلمين عليه الصلاة والسلام، وقد وقع في رواية الترمذي عن أم الفضل وصف حالته ﷺ حين خرج إلى الصلاة، قالت: خرج إلينا رسول الله ﷺ وهو عاصبٌ رأسه في مرضه فصلى المغرب، فقرأ بالمرسلات، فما صلاها بعد حتى لقي الله عز وجل.([٤٩])

وينقل النبي ﷺ وتهمه الصلاة بالمسلمين.

٣١- قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبه دخلت على عائشة فقلت: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ؟ قالت: بلى، ثقل النبي ﷺ فقال:" أصلّى الناس"؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك. قال:" ضعوا لي ماءً في المخضب". قالت: ففعلنا. فاغتسل فذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال ﷺ :" أصلّى الناس؟" قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. قال:"ضعوا لي ماءً في المخضب" قالت: فقعد فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال :"أصلّى الناس"؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. فقال:" ضعوا لي ماءً في المخضب". فقعد فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه. ثم أفاق فقال:" أصلّى الناس؟" قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله- والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي عليه السلام لصلاة العشاء الآخرة- فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس. فقال أبو بكر- وكان رجلا رقيقاً- يا عمر صلّ بالناس، فقال له عمر: أنت أحق لذلك. فصلى أبو بكر تلك الأيام.([٥٠]) وفي رواية أخرى تقول عائشة: رضي الله عنها لما مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة فأذن، فقال:" مروا أبا بكر فليصل بالناس" فقيل له: إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام في مقامك لم يستطع ان يصلي بالناس. وأعاد، فأعادوا له،

فأعاد الثالثة فقال:" إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس"فخرج أبو بكر فصلى (٥١)

ووقع في رواية أبي موسى التصريح ببيان المبهم فقال:

٣٢- مرض النبي ﷺ فاشتد مرضه، فقال:" مروا أبا بكر فليصل بالناس" فقالت عائشة: إنه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس. قال:" مروا أبا بكر فليصل بالناس" فعادت. فقال:" مري أبا بكر فليصل بالناس، فإنكن صواحب يوصف"، فأتاه الرسول. فصلى بالناس في حياة النبي ﷺ.

٣٣- ويروي أنس بن مالك بعض ما وقع لهم في تلك الفترة من أخبار النبي ﷺ فيقول: إن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى كان يوم الإثنين، وهم صفوف في الصلاة، فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا، وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة ، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم، وأرخى الستر.(٥٢)

٣٤- وفي رواية ابن عباس ﷺ قال: كشف رسول الله ﷺ الستارة، والناس صفوف خلف أبي بكر فقال:" أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم" (٥٣)

٣٥- وتحدثنا عائشة عن صلاة النبي ﷺ تلك الفترة فتقول: والذي ذهب به ما تركهما حتى لقي الله، وما لقي الله تعالى حتى ثقل عن الصلاة، وكان يصلي كثيراً من صلاته قاعداً - تعني الركعتين بعد العصر - وكان النبي ﷺ يصليهما، ولا يصليهما في المسجد مخافة أن يثقل على أمته، وكان يحب ما خفف عنهم.(٥٤)

وبينت رواية لعائشة عند البخاري أن النبي ﷺ كان قد صلى وراء أبي بكر جالساً.

قالت: فوجد النبي ﷺ من نفسه خفة، فخرج يهادَى بين رجلين (٥٥) كأني أنظر رجليه تخطان من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر، فأومأ إليه النبي ﷺ أن مكانك. ثم أُتي به حتى جلس إلى جنبه.(٥٦) قال عروة عن عائشة: فوجد رسول الله ﷺ في نفسه خفة فخرج، فإذا أبو بكر يؤم الناس، فلما رآه أبو بكر استأخر، فأشار إليه أن كما أنت، فجلس رسول الله ﷺ حذاء أبي بكر إلى جنبه، فكان أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله ﷺ والناس يصلون بصلاة أبي بكر.(٥٧) وفي رواية الترمذي، قالت عائشة: صلى رسول الله ﷺ خلف أبي بكر في مرضه الذي مات فيه قاعداً.(٥٨)

سابعاً: الاحتضار والوصايا

أدرك الصحابة أنها آخرُ اللحظات وآخرها؛ فهاهو العباس بن عبد المطلب يكلم علياً أن النبي ﷺ أوشك على الوفاة.

٣٦- روى ابن عباس، أن علي بن أبي طالب ﷺ خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا (٥٩) وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت. اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله: فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا، فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ(٦٠).

ويدخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وقد ثقل حتى لا يقوى ﷺ على الكلام، قالت عائشة:

٣٧- دخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك يستن به، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن فأعطانيه فقضمته ثم مضغته فأعطيته رسول الله ﷺ فاستن به وهو مستند إلى صدري (٦١) وتبين الرواية الأخرى كيف كان حال النبي ﷺ آنذاك. قالت عائشة: دخل عليَّ عبد الرحمن وبيده السواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه وعرفت أنه يحب السواك. فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم.فتناولته فاشتد عليه، وقلت ألينه لك فأشار برأسه أن نعم فلينته (٦٢).

فظهر النزع على النبي ﷺ ورأى ﷺ أن يكتب للصحابة كتاباً لا يضلوا بعده أبداً.

٣٨- قال ابن عباس: لما حُضِرَ رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ:"هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده" فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت، واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك. فلما أكثروا اللغو والإختلاف قال رسول الله ﷺ:" قوموا"(٦٣)

ورفعت قصة الكتاب يوم الخميس قبل وفاة النبي ﷺ بأربعة أيام كما أفادت رواية سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال: "ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً (٦٤).

٣٩- وعند البخاري في كتاب الجهاد: قال ابن عباس:" يوم الخميس وما يوم الخميس؟! ثم بكى حتى خضب دمعه الحصباء، فقال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس، فقال:" ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبدا". فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع. فقالوا: هجر رسول ﷺ. قال:" دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه". وأوصى عند موته بثلاث:" أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم" ونسيت الثالثة(٦٥).

٤٠- وروى طلحة بن مصرّف قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى ﷺ، هل كان النبي ﷺ أوصى؟ فقال: لا. فقلت كيف كتب على الناس الوصية أو أمروا بالوصية؟ قال: أوصى بكتاب الله.(٦٦)

وكانت عائشة ترى رأي عبد الله بن أبي أوفى ﷺ أن رسول الله ﷺ لم يكن أوصى بشيء خاص فقالت:

٤١- عن الأسود قال: ذكروا عند عائشة أن علياً ﷺ كان وصياً فقالت: متى أوصى إليه؟ وقد كنت مسندته إلى صدري أو قالت: حجري فدعا بالطست، فلقد انخنث في حجري فما شعرت أنه قد مات فمتى أوصى إليه؟(٦٧).

وكان رسول الله ﷺ في تلك اللحظات الصعاب يعاني النزع الشديد كما روت عائشة وابن عباس.

٤٢- عن عائشة وابن عباس قالا: لما نُزِلَ برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو كذلك يقول: "لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" يحذر ما صنعوا(٦٨)

قالت عائشة: لولا ذلك لأبرز قبره، خشي أن يتخذ مسجداً(٦٩)

ويروي أسامة بن زيد قصة عقد النبي ﷺ لواء الغزو له فيقول:

٤٣- لما ثقل رسول الله ﷺ هبطت وهبط الناس المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمت فلم يتكلم، فجعل رسول الله ﷺ يضع يديه عليّ ويرفعهما، فعرفت أنه يدعو لي(٧٠)

٤٤- وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه:" الصلاة وما ملكت أيمانكم" فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه.(٧١)

وفي رواية أنس بن مالك قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة وهو يغرغر بنفسه:" الصلاة وما ملكت أيمانكم"(٧٢)

٤٥- ويروي ذكوان مولى عائشة أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: إن رسول الله ﷺ كان بين يديه ركوة - أو علبة فيها ماء يشك عمر- فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ويقول: "لا إله إلا الله، إن للموت سكرات" ثم نصب يده فجعل يقول:" في الرفيق الأعلى" حتى قبض ومالت يده ﷺ.(٧٣)

ومما أوصى به النبي ﷺ بين يدي وفاته ما رواه عبد الرحمن بن عوف قال:

٤٦- لما حضرت النبي ﷺ الوفاة قالوا: يا رسول الله أوصنا. قال:"أوصيكم بالسابقين الأولين من المهاجرين، وبأبنائهم من بعدهم إلا تفعلوه؛ لا يقبل منكم صرف ولا عدل"(٧٤)

٤٧- وتروي أم سلمة أن علياً كان من آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ قالت: عدنا رسول الله ﷺ غداة بعد غداة، يقول:" جاء علي" مراراً، قالت: وأظنه كان بعثه في حاجة. قالت: فجاء بعد، فظننت أن له إليه حاجة فخرجنا من البيت، فقعدنا عند البيت وكنت أدناهم إلى الباب، فأكب عليه علي فجعل يساره ويناجيه ثم قبض ﷺ من يومه ذلك. وكان أقرب الناس به عهداً.(٧٥)

وتحاول عائشة أن تخفف عن النبي ﷺ فتقرأ عليه المعوذات.

٤٨- روى عروة بن الزبير قال: أخبرتني عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكي نفث على نفسه بالمعوذات، ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث، وأمسح بيد النبي ﷺ عنه.(٧٦).

ومع اشتداد المرض على النبي ﷺ تبكي فاطمة كما يروي أنس بن مالك.

٤٩- قال أنس: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكربَ أباه! فقال لها:" ليس على أبيك كرب بعد اليوم"(٧٧).

وتحار أم المؤمنين صفية رضي الله عنها فتأتي النبي ﷺ حزينة لمرضه وما هو فيه كما يروي زيد بن أسلم فيقول:

٥٠- اجتمع نساء النبي ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، واجتمع إليه نساؤه، فقالت صفيه بنت حيي: إني والله يانبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمزن أزواجه ببصرهن، فقال:" مضمضن" فقلن: من أي شيء؟ فقال: "من غمزكن بها، والله إنها لصادقة".(٧٨).

وكأنها رضي الله عنها قد جزعت لفراقه ﷺ كما يروي ذويب (٧٩) فيقول:

٥١- لما حضر- أي النبي ﷺ - قالت صفية يا رسول الله لكل امرأة من نسائك أهل تلجأ إليهم، وانك أجليت أهلي فإن حدث حدث فإلى من؟ قال:" إلى علي بن أبي طالب"(٨٠).

ثامناً: آخر الهمسات النبوية

هي اللحظات الأخيرة، وتتقطع السماء عن الأرض، وتمضي الخلائق وحدها، تواجه الأحداث، بلا نبي أو رسول! انها هي الدنيا تعيش هذه الحقيقة للمرة الأولى منذ بدء الخليقة، فقد كان للناس أنبياء ورسل تسوسهم وتقودهم، واليوم جاءت الرسالة الأخيرة، والنبي الخاتم! فلا نبي بعده (٨١).

وتدرك أم أيمن، حاضنة النبي ﷺ أنه الإنقطاع بين السماء والأرض، وأنه قد بدأ الفصام النكد، مالم يكن التمسك بالكتاب والسنة نهج الأمة وسبيلها في الطريق الناهج الطويل.

٥٢- روى أنس بن مالك ﷺ قال: قال أبو بكر ﷺ، بعد وفاة رسول الله ﷺ، لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلما انتهينا إليها بكت. فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ. فقالت: ما

أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ. ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء. فجعلا يبكيان معها (٨٢).

ولنا مع عائشة أم المؤمنين لقاءات، إذ هي أكثر أهل بيته رواية لخبر وفاته؛ وهي الشاهدة على آخر المواقف وآخرها، فتقول:

٥٣- كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: "إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيا- أو يخير-" فلما اشتكى وحضره القبض، ورأسه على فخذ عائشة، غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: "اللهم في الرفيق الأعلى" فقلت إذاً لا يختارنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح.(٨٣) وفي رواية مسلم قالت: فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها رسول الله ﷺ قوله: "اللهم الرفيق الأعلى"(٨٤).

"اللهم الرفيق الأعلى" آخر الهمسات، بل آخر الكلمات، وهي ترسم الطريق لكل مسلم ماضٍ في طريق الله. إنها الكلمة الفصل، فإما أن يكون العبد مع الرفيق الأعلى، وإما أن يختار الرفيق الأدنى، وهل يستويان !!!

"اللهم الرفيق الأعلى" ليعلّم النبي ﷺ أمته وهو في أشد اللحظات وأثقلها، أن الحياة وإن طالت، وتمتع بها المرء، إلى نهاية؛ فلتكن مع الرفيق الأعلى، "اللهم الرفيق الأعلى" لكي يدركك السوء وأنت على ذلك؛ على الدرب الرفيق الأعلى، فتكون بعون الله سبحانه ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾(٨٥).

٥٤- ومن آخر الكلمات التي همس بها النبي ﷺ في احتضاره ما رواه أنس بن مالك ﷺ قال: كان آخر وصية رسول الله ﷺ وهو يغرغر (٨٦) بها في صدره وما كان يفيض (٨٧) بها لسانه: "الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم" (٨٨).